الفصل الأول:

أقدم من سكن فلسطين

فيصل صالح الخيري

كان هناك وقت في الماضي البعيد، لا يعلم مداه إلا الله سبحانه وتعالى، حدث فيه الانفجار الأول، إلا أنه بالاعتماد على شواهد، قدر علماء الجيولوجيا تاريخ هذا الانفجار بحوالي ١٥ مليار سنة، ومازال يحتمل وجود شواهد، تعود بتاريخه إلى أقدم من ذلك، والله أعلم. وقد تبعه تكون المجموعة الشمسية، منذ حوالى خمسة مليارات سنة، بينما تشكل كوكب الأرض منذ حوالى ٤.٥ مليار سنة.

ولنترك خطوات تطور الأرض جانباً، لنقف عند آخر خطوات ذلك التطور، وهو آخر الأحقاب الجيوليجية (السينوزى)، وقد بدأ منذ حوالى ٦٥ مليون سنة، وفيه أخذت الأرض شكلها شبه النهائى، والأقرب إلى الوضع الحالى، وحصل تطور كبير للثدييات، فنشأت حيوانات جديدة، حدث ذلك في القسم الأول من (السينوزى) المسمى بالثلاثى، الذي استمر بين ٦٥ - ٣ مليون سنة، أما الرباعى، فقد بدأ منذ حوالى ٣ ملايين سنة، ولا زال مستمراً، وهو العصر الذي يعنينا مباشرة في دراسة ما قبل التاريخ.

ففي هذا الزمن ظهر الإنسان، وضمن الطبقات الجيولوجية العائد للرباعى وجدت آثاره الأولى، ولذلك أطلق على هذا الزمن اسم حقب

الإنسان، فلابد أن تكون الحال قد وصلت آخر الأمر، إلى مرحلة يستطيع فيها الإنسان أن يقف على قدميه فوق الأرض، وأن يتأمل ما حوله، ويعيش على ظهرها، مؤثراً ومتأثراً في البيئة التي يعيش فيها.

ويطول بنا المجال، إذا حاولنا تتبع مسيرة الإنسان عبر ملايين السنين، ومازال يحتمل وجود شواهد تعود بتلك المسيرة إلى تاريخ أقدم مما ذكرنا، وقد أخذ يتردد على الألسنة في الآونة الأخيرة، أنها إلى حوالى ٧ ملايين سنة، ولا زال الموضوع قيد البحث.

لذا سنترك المراحل الثلاثة الأولى من مراحل تطوره، ونقف عند المرحلة الرابعة والأخيرة، التي تملت في ظهور الإنسان، الذي يحلو لبعض العلماء أن يطلق عليه لقب " الحاذق أو الصانع "، وقد ظهر هذا الإنسان (الهوموهابيل) منذ أكثر من ٢.٥ مليون سنة، حيث عاش ومات في القارة الأفريقية، على امتداد حوالى مليون سنة، وقد صنع هذا الإنسان أسلحة بسيطة، كانت أدواته الرئيسية في نشاطه في الصيد والالتقاط من أجل تأمين قوته، وهو لم يعرف النار ولا البناء، وكان قصير القامة ضعيف البنية الجسدية والذهنية، ولكنه تطور بشكل بطيء جداً إلى نوع آخر.

إنسان فلسطين الأول:

وهو متطور في صفاته الفيزيولوجية والحضارية عن السابق، ومعنى اسمه " الهوموراركتوس " أى الإنسان المنتصب القامة، فقد كان أطول قامة وأقوى بنية من سلفه، وحجم دماغه أكبر، وجمجمته أكثر تدوراً، وجبهته أقل ميلاً للخلف، وعظام حواجبه بارزة، ولكن ذقنه لا تزال غير

واضحه، مما أثر قدره من سلفه، فدخل مناطق جديدة في أفريقيا وآسيا وأوروبا وهذا النوع هو أول أهل بلاد الشام وافداً إليها من أفريقيا، وسكن المناطق الساحلية والداخلية من الشام.

أما عن حياته الاقتصادية، فقد كان هذا الإنسان أكثر عدداً من سلفه، وأقدر على السيطرة على بيئته والاستفادة من خيراتها، وقد عاش على خيرات الطبيعة الحرة، التي توفرت في المناطق التي سكنها، فتغذى بالنباتات البرية من ثمار وخضار، جمعها غالباً بيديه، دون الحاجة غالباً إلى أدوات خاصة.

وطور هذا الإنسان قدرته على الصيد، واصطاد مختلف الحيوانات حتى الكبير منها كالفيل، وفي البداية نظم اصطياد هذه الحيوانات بشكل فردى أو جماعى، وهاجم بالأسلحة والأدوات والحجارة العادية أيضاً، ومع الزمن أصبح هذا الإنسان صياداً ماهراً، صنع أسلحة وأدوات قوية ومؤثرة، على رأسها الفؤوس اليدوية، وهى أدوات كبيرة مصنعة بشكل دقيق، لها حدان قاطعان ورأس حاد وقبضة دائرية، وأشكالها مختلفة متطاولة أو بيضوية أو مثلثة، وقد استخدمت الفؤوس في وظائف متنوعة، كالطعن والقطع والقلع والحفر والسحق وما شابه ذلك، كما صنع هذا الإنسان الأدوات العظمية والخشبية، ولكن لسوء الحظ لم يصلنا منها إلا القليل جداً، بسبب فنائها عبر الزمن. ولقد استطاع بواسطة هذه الأسلحة والأدوات قتل حيوانات خطيرة، مضافاً إلى ما ذكرنا: دب المغاور وحمار الوحش البرى ووحيد القرن والحصان، وسريعة مثل الأيل والغزال، وبعض هذه الحيوانات، كان يعيش على شكل قطعان،

ويصعب النيل منها إلا من قبل جماعة بشرية منظمة ومسلحة بشكل جيد، تستطيع استخدام أساليب قنص متنوعة، كالمطاردة والمهاجمة ونصب الفخاخ أو المحاصرة في المغاور والمستنقعات.

إننا نجد أنفسنا مرغمين على الإصرار على حقيقة ذات مغزى، تعرض لها " ميرسيا إلياد " وهى أن البشريات (أجناس الإنسان)، قد نجحوا في تجاوز أسلافهم، بأن أصبحوا أكلة لحوم، فخلال زهاء مليونين من السنوات، عاش أسلاف أناس العصور الحجرية على الصيد، وأن الثمار والجذور والرخويات... إلخ، والتي كانت تجنيها النساء والأولاد، كانت غير كافية لضمان بقاء النوع. إن الصيد حدد تقسيم العمل تبعاً للجنس، مدعما بهذه الطريقة (التحول البشرى)، لأنه لدى الحيوانات الضارية، وفي كل عالم الحيوان، لا يوجد مثل هذا التفريق وعلى أى حال، فمع تطور فن الصيد، أصبح اللحم يشكل الوجبة الأساسية لهذا الإنسان، الذي أدرك مبكراً القيمة الغذائية العالية للحوم، فأكلها بعد أن عرف تحضيرها بشكل جيد، عن طريق الشى أو الطبخ.

حياة الاجتماعية والروحية:

إن الأمر يصبح أكثر صعوبة وغموضاً، عندما نتحدث عن الحياة الاجتماعية والروحية لهذا الإنسان، لكن المعطيات المتوفرة لدينا، تجعلنا نستنتج أو مجتمعات هذا الإنسان، قد عاش في إطار المشاعية الأولى، وتقاسمت الخيرات حسب الحاجات، في جو اجتماعى هادئ، أصبحت سماته الإنسانية أكثر وضوحاً، بعد أن انفصل الإنسان عن العالم الحيوانى بسلوكه ومفاهيمه، ومع أن الناس لا زالوا قلة، لكنهم كانوا منتظمين

ومتعاونين، تربطهم مفاهيم العمل والأسرة وتربية الأطفال، وكسب القوت والدفاع عن النفس، وما إلى ذلك من العلاقات الإنسانية المتقدمة، فلقد عاش إنسان الهوموراركتوس على شكل جماعات قليلة العدد من ٥ إلى ٢٠ شخصاً، سكنت في العراء بجوار مصادر العيش، وفي وديان الأنهار وعلى الشواطئ، أو في المغاور والملاجئ الطبيعية، وقد أدرك أهمية هذه فسكن في مداخلها المميزة، دون أن يجرؤ على الدخول إلى أعماقها المظلمة، ثم قام بتكييفها حسب حاجته، كتقسيمها بجدران من الأغصان والجلود، وإنشاء المواقد والمصاطب فيها.

وننتقل الآن إلى موضوع عظيم الخطر للإنسانية، ويتمثل في اكتشاف الهوموراركتوس للنار، فعرف هذا الإنسان النار مبكراً، مكتشفاً فوائدها الهائلة، سواء في التدفئة في مناخ جليدى، أو في الإنارة للمغاور والملاجئ المظلمة التي سكنها، أو في طبخ اللحوم النيئة التي أكلها، الأمر الذي كان له فعل قوى على تطوره التشريحى، ولا سيما في مجال استخدام الفك وشكل الأسنان، كما أنه استخدم هذه النار في حماية نفسه والدفاع عن حياته في وجه الحيوانات المفترسة، التي ولابد أنها تعرضت له وهددته باستمرار، مما ترتب عليه تمكينه من أن يوسع دائرة انتشاره.. وقد عثر على الدلائل الأولى لهذا النار في " كينيا " بأفريقيا، وهى تؤرخ حوالى مليون سنة، لكن منذ حوالى نصف مليون سنة، أصبحت هذه الدلائل أكثر كثافة وانتشاراً، سواء في آسيا، كما دلت مكتشفات الصين، أو الشرق العربي القديم. ونعود ثانية إلى مساكن هذا الإنسان، لنقف عند واحدة من أهم خطواته، التي أتت عندما استطاع التحرر من الاعتماد

الكلى على الملاجئ الطبيعية، وأقام بنفسه بيوته الخاصة، التي مكنته من العيش في الكثير من المناطق الجغرافية المكشوفة.. لقد كانت البيوت عبارة عن أكواخ صغيرة وبسيطة من الأحجار والأغصان والجلود، وبنيت في المناطق الغنية التي توفرت فيها إمكانيات الحياة، ونحن نخمن أن هذا الإنسان قد ارتدى ومنذ ظهوره أوراق الأشجار والنبات وجلود الحيوانات. ومن أظهر المعالم في حياة الهوموراركتوس، هو اختراعه لنوع من البدائية، وحسب رأى الدكتور " سلطان محيسن ": فقد أشارت الدراسات التي أجريت على مناطق في المخ إلى أن الهوموراركتوس كان يملك لغة واضحة المفردات والمعانى، شكلت الرباط النفسى بين مختلف أفراده وجماعته، التي تناقلت تجاربها ومعارفها عبر هذه اللغة فيما يقول بعض الفلاسفة: لهو أول الاختراعات الكبرى في تاريخ البشرية، إن لم يكن هو الاختراع الأوحد، الذي يطوى في أحشائه كل من اختراعات، اللغة هي الأداة العقلية الأولى التي مكنت الإنسان من تحديد الأشياء أفكاره عنها، وهى بالتالى الوسيلة الفعالة التي سمحت له بالخروج من عهد الاضطراب والفوضى، إلى مهد التجديد والنظام، ومنذ ذلك الحين أصبح في وسع الإنسان أن يتصرف عن بعد، لاغياً في سلوكه كل مسافة قد تفصله عن الأشياء.

بقى علينا أن نقول: إن الحياة الاجتماعية للهوموراركتوس، كانت أكثر تنظيماً من سلفه، فقد عاش في نطاق الأسرة، وقف على رأسها أب، تبعت له زوجة أو عدة زوجات وأولاد، وعرف تقسيم العمل على حسب الجنس والسن، واشتغل الرجال في المجالات الشاقة كالصيد، بينما عملت

النساء في الالتقاط، وفي تدبير أمور البيت والأولاد.

بقى أن نتحدث عن حياة الهوموراركتوس الروحية، وللأسف، ليس في الوسع إلى الآن التحدث إلا قليلاً جداً، لأن المعلومات في هذا المضمار شبه معدومة، لكننا نستطيع أن نستدل من مجمل ما تم العثور عليه من آثار هذا الإنسان، أنه تخطى بالكامل مرحلة العزلة الفردية، وأنه تطور في إطار الجماعة الإنسانية الوحدة المتعاونة في الخير والشر، تدافع عن نفسها كجماعة، وتشقى أو تسعد، تجوع أو تشبع معاً، تستهلك من الموارد الطبيعية، ما يكفي لسد حاجاتها فقط، دون أن يكون لديها شعور أو رغبة في التملك الخاص، بل كانت خيراتها مشاعية، تتقاسمها حسب حاجاتها، وبقيت بذلك بعيدة عن متاهات تجميع الثروة وصراعات التفاوت الطبقي.

حضارات فلسطين الأولى:

إن الاهتمام بدراسة مخلفات ما قبل التاريخ، بدأ في فلسطين إبتداءاً من عام ١٩٢٥، من قبل علماء الآثار الأوروبيين والأمريكيين من أمثال دروثي غارود، ورينيه نيفي، وتورفي بيتر، ولويفيل، ورست، وديانا كيركبرايد.

وقد وجدت أقدم بقايا أثرية بشرية في فلسطين، في رسوبيات تكوين عرق الأحمر، الواقعة في غور الأردن، جنوب غرب مصب نهر اليرموك في نهر الأردن، وكذلك في وادى شقمة، وهى أدوات حجرية صغيرة وأدوات للقطع، وعظمة كبيرة لجمل أو زرافة، ويرجع عمر هذا التكوين بين (١.٧ - ١.٤) مليون سنة، وتنسب هذه المخلفات إلى إنسان الهوموراركتوس، الذي سلك في طريقه إلى بلاد الشام خطين أثنين،

يشكلان ممرات طبيعية بين أفريقيا وآسيا. الأول الساحلي، أي على امتداد سواحل البحر المتوسط، والثاني داخلي، على طول الانهدام السوري - الأفريقي، الممتد من جنوب وشرق أفريقيا في الجنوب، مروراً بالبحر الأحمر، فوادي عربة، فوادي الليطاني، وحتى وادي العاصي في سوريا شمالاً.

إنسان موقع العبيدية:

وبعد إنسان " عرق الأحمر " ظهر الهوموراركتوس وسكن موقع (العبيدية)، حوالي ٧٠٠.٠٠٠ سنة مضت، وإن كان بعض العلماء يرى أن موقع العبيدية، قد تم سكناه في تاريخ يعود إلى (١.٤ مليون سنة). وكان إنسان هذا الموقع يعيش على شواطئ بحيرة عزبة، كانت تحتل منطقة بحيرة طبرية وجنوبها، وقد وجدت بقايا الإنسان، كبقايا الأسماك والبرمائيات والزواحف وأكثر من خمسين نوعاً من الثدييات: كالفيل ووحيد القرن والغزال والزرافة وغيرها، ويذكر دكتور سلطان محيسن " أن جماعات العبيدية الأولى قد تغذت من صيد الفيل والحصان والوعل وفرس الماء، كما التقط ثمار الزعور والبطم واللوز وغيره. ومن جهة أخرى، فقد عثر في العبيدية على أربعة أجزاء من جمجمة وأسنان، دلت دراستها المتأنية أنها تعود إلى نوع الهوموراركتوس الباكرة، وهي بذلك أقدم هياكل عظمية إنسانية أتت من بلاد الشام، غير أن آثار هذا العصر على العموم نادرة، ومواقعه صغيرة باستثناء موقع العبيدية، ومع ذلك فإن آثار هذا الموقع وقبله موقع عرق الأحمر، تشكل دليلاً كاملاً على الوجود الإنساني الباكر في فلسطين، قبل أية منطقة أخرى من آسيا وأوروبا.

مجتمعات العصر الحجري القديم الأدنى الثاني وبداية سكنى أراضي القدس:

تدل الشواهد الأثرية أن سكنى أراضي القدس، قد تم في العصر الحجري القديم الأدنى الثاني، يؤرخ من حوالى ٧٠٠.٠٠٠ إلى ٢٥٠.٠٠٠ سنة مضت، وفي هذا العصر إزداد عدد سكان بلاد الشام، وتوضحت هويتهم الحضارية، فظهرت حضارات محلية أصيلة، تطورت بأشكال مختلفة، في مختلف المناطق الساحلية أو الداخلية من بلاد الشام. لقد أصبحنا في هذا العصر نستطيع التحدث عما يسميه المختصون " المراكز الحضارية " التي عاشت فيها جماعات صنعت كل منها أدواتها الخاصة، التي تطورت على امتداد زمن طويل، وقد ساد هذا التخصص في كل بلاد الشام الساحلية الداخلية، مما يدل على أننا بدأنا نتلمس ومنذ هذا العصر، بوادر تجانس حضاري شمل تلك البلاد كلها. إن موقع (اللطامنة) غرب حماه في سوريا، هو أهم موقع أثرى معروف حتى الآن من ذلك العصر، فقد عثر فيه على بقايا معسكر بقى سليماً منذ حوالى نصف مليون سنة، وقد احتوى على عدة آلاف من الأدوات الحجرية، بينها فؤوس يدوية متطاولة وكبيرة دقيقة الصنع، ندر أن وجد ما يشابهها من هذا العصر في العالم، كما عثر على معاول وقواطع ومقاحف وسواطير وأدوات متنوعة، بعضها ثقيل وأخرى خفيفة، كما عثر فيها على دلائل باكرة للبناء واستخدام النار. وفي مغارة " أم قطفة " شرقى القدس، وعلى مسيرة عشرة كيلومترات للجنوب الشرقى من بيت لحم، بالقرب من وادى المربعات، عثر الآثارى " رينيه نوفيل " على أدوات دقيقة وأدلة استعمال النار، تتماثل مع ما اكتشفه علماء آخرون في موقع

(اللطامنة)، وتعود إلى نفس التاريخ.

وبالإضافة إلى أم قطفة في منطقة القدس، ازدادت بقايا إنسان هذا العصر، ووجدت في مواقع كثيرة في فلسطين منها: موقع جسر بنات يعقوب بين طبرية والحولة، وأفرون، وبرعم، والطابون في الجليل، ولقد بقيت الأدوات الحجرية المؤشر الرئيسي على مجتمعات هذه المرحلة، لكن بدأت تظهر معطيات أثرية أخرى، تصاعدت أهميتها باستمرار. لقد حصلت آنئذ تجديدات هامة في تقنيات تصنيع الأدوات الحجرية أو في نمط الحياة.

مجتمعات العصر الحجري القديم الأدنى الثالث:

يمثل هذا العصر المرحلة الأخيرة من العصر الحجرى القديم الأدنى، وهو يؤرخ بين ٢٥٠.٠٠٠ إلى ١٥٠.٠٠٠ سنة مضت، وقد تابعت مجتمعات ما قبل التاريخ في بلاد الشام تطورها في هذا العصر أيضاً، ويلاحظ ازدياد واضح في عدد السكان الذين انتشروا ولأول مرة، إلى مناطق جديدة تقع إلى الشرق من الانهدام السورى - أفريقى، فوصلوا إلى البادية والفرات في سورية، وإلى الشرق من نهر الأردن والبحر الميت في فلسطين، وهكذا بدءاً من هذا العصر، أقام إنسان ما قبل التاريخ، الذي أصبح ينتمى إلى نوع متطور من الهوموراركتوس، في كل المناطق الجغرافية لبلاد الشام، ولم ينقطع عن العيش في تلك المناطق حتى نهاية العصور الحجرية، لقد أضاف الهوموراركتوس المتطور ابتكارات جديدة ومتنوعة فتابع التقدم في تصنيع الأدوات الحجرية وحسن تقنياتها،

وخاصة الفؤوس اليدوية، ثم طور المقاحف والمكاشط والسكاكين، التي أصبحت تستخدم أكثر من السابق، كما تقدم البناء، وتم تكييف المغاور بما يتناسب مع حاجات السكن الطويل، وجرت الاستفادة بشكل أفضل من النار، فحفرت المواقد التي أوقدت عند الحاجة. وقد كشف عن آثار تعود إلى هذا العصر في فلسطين، في مغارة " الزطية " شمال غربي بحيرة طبرية، وأم قطفة في منطقة القدس، ومغارة الطابون ومعان باروخ.

المجتمعات الانتقالية بين الهوموراركتوس والنياندرتال:

بين نهاية الهوموراركتوس، وبداية مجتمعات والنياندرتال، حصر عصر انتقالي، يؤرخ بين حوالى ١٥٠.٠٠٠ إلى ٨٠.٠٠٠ سنة مضت، وفي هذا العصر حدثت تغييرات حضارية، وربما عرقية هامة وعاصفة، اجتاحت بلاد الشام كلها، وشكلت الميزة الهامة لهذه المرحلة، وهي غامضة ومعقدة جداً، لضعف المعطيات الجيوليجية والأثرية، الأمر الذي جعلنا عاجزين أن نورد علة وافية لذلك، وهذه حقيقة يمكن استنتاجها من التفسيرات المختلفة لهذه العلاقة، فمثلاً يعتبر الباحثون استمرار الأدوات الحجرية مع تغييرات بسيطة ومنتظمة، دليل تطور هادئ لنفس الجماعة البشرية، في تحين تعتبر التغيرات الجذرية في تصنيع تلك الأدوات، دليل تحول شامل مرتبط بقدوم بشرية جديدة واختفاء القديمة (اختفاء الهوموراركتوس وظهور والنياندرتال).

ومهما كان الأمر، فقد ظهرت خلال هذه المرحلة حضارات انتقالية، تعايشت كلها في الزمان والمكان، صنعت مجتمعاتها أدوات أكثر دقة

وتنوعاً، تعكس قدرة عالية في التحكم بتصنيع الخامات الطبيعية، وبخاصة الحجر، وكانوا أكثر ارتباطاً بأرضهم، سكنوا في مواقعهم لسنوات طويلة وجيلاً بعد جيل، فطبعوا بطابعهم الخاص.

إن موقع الزطية في فلسطين، هو أهم موقع أثرى معروف حتى الآن من ذلك العصر، وقد دلت البقايا العظيمة التي وجدت فيه، على إنسان من نوع الهوموراركتوس المتطور، كما أتت آثاره من مواقع أخرى في فلسطين مثل الطابون.

العصر الحجرى القديم الأوسط مجتمعات إنسان النياندرتال:

منذ مئة ألف سنة أو أكثر، أى منذ مطلع العصر الحجرى القديم الأوسط، ظهر نوع جديد من البشر، كان أكثر تطوراً، سواء في شكله الفيزيولوجى، أو في انجازاته الحضارية من الهوموراركتوس، عثر عليه لأول مرة في وادى (نياندر) في ألمانيا، ومن هنا جاءت تسميته بإنسان (النياندرتال)، وسميت حضارته بالموستيرية أو اللفلوازية.

لقد اختفى، آنئذ الموازيك الحضارى، الذي ساد في المرحلة الانتقالية السابقة، وتوارى الهوموراركتوس، تاركا المسرح لخلفه النياندرتال، الذي كانت جماعته أكثر عدداً، وانتشرت على مساحات جديدة لم تسكن من قبل، ولقد أوضحت دراسة الهياكل العظمية المختلفة، أن النياندرتال كان أكثر تطوراً من سلفه الهوموراركتوس، وهو غليظ الجسم مربوع القامة، طوله يتراوح بين ١٦٠ - ١٦٥ سم، وكان حجم دماغه كبيراً (١٠٠٠ - ١٢٠٠ سم٣، وجهه مسطح وأقل بروزاً إلى الأمام، وحواجبه رغم بروزها فهي أقل سماكة منها لدى سلفه، كما أن جمجمته أكثر تدوراً

وجبهته أقل تراجعاً إلى الخلف، ولكن لأول مرة ظهرت له ذقن شبه واضحة.. ومع ظهور النياندرتال، ذاب تقريباً التنوع الحضارى الذي عرفته بلاد الشام في العصر السابق، وساد تجانس واضح جسدته المجتمعات التي عاشت في العصر الحجرى القديم الأوسط، التي صنعت أسلحتها وأدواتها الخاصة، وأتقنت البناء والاستفادة من النار، وكان لها حياة روحية واقتصادية واجتماعية متقدمة، وأتت من هذا العصر هياكل عظمية هامة من فلسطين، دلت على تطور النياندرتال نحو الإنسان العاقل.

حياته الاجتماعية والاقتصادية:

هناك أدلة تفيد بازدياد عدد السكان، وبازدياد حجم الوحدات الاجتماعية، وظهور شواهد على تطور ثقافى وتغيرات تكنولوجية، مع بعض التخصص في بيئات لم تستغلها الكائنات البشرية السابقة. فلقد استمر النياندرتال بالاعتماد على الصيد والالتقاط، وكان صياداً ماهراً، اصطاد حيوانات قوية وخطيرة: كالماموث ووحيد القرن واستفاد من لحمها وجلدها وعظمها، كما ابتكر أسلحة وأدوات حجرية جديدة، معظمها مقاحف وسكاكين ونصال ومخارز، وصنع الأدوات المركبة، ذات القضبان الخشبية والعظمية، والنصل الحجرية الحادة، ولقد ظل النياندرتاليون كأسلافهم، يجمعون النباتات والثمار، لكنهم مارسوا هذه الأنشطة بكثافة وتنظيم أفضل، بعد أن زادت خبرتهم بخيرات بيئتهم عبر الفصول، اكتشفوا مناطق جديدة، بعضها جبلى مناخه بارد، فتكيفوا معه بمهارتهم في تصنيع الجلود، التي نخمن أنهم فصلوها وخاطوها بعناية

وارتدوها، ليس فقط دفعاً للبرد، وإنما لاعتبارات نفسية وجمالية أيضاً، بهدف ستر أجسادهم، والظهور بالشكل الحسن، ورغم أننا لم نعثر على الآثار المباشرة لهذه الملابس التي أفناها الزمن، لكنا وجدنا في مواقع هذا العصر الكثير من المقاحف والمخارز الحجرية والعظمية، وهي أدوات جيدة في تحضير الجلود.

لقد كان النياندرتاليون أكثر ارتباطاً بأرضهم، فأقاموا في مراكز استيطان رئيسية (معسكرات) تبعتها عدة مراكز أو معسكرات مؤقتة، وفي الوقت نفسه أولوا المغاور والملاجئ الطبيعية اهتماماً لم يسبق له مثيل. إن معظم المواقع النياندرتالية في بلاد الشام هي مغاور وملاجئ وقد استغلوها على أفضل وجه، وقاموا بتكييفها وإعادة تنظيمها وتقسيمها، فرفعوا فيها المساطب والجدران ووسعوا وضيقوا مداخلها حسب الحاجة، وقد سكنت آلاف السنين، فتراكمت آثار متنوعة، لها دلالات حضارية كثيرة، نذكر منها المواقد مثلاً.

فلقد استفاد النياندرتاليون من النار، بشكل أفضل وعرفوا متى وأين يوقدونها بطرق مختلفة القدح، الحك، الفتل، وغيرها فأصبح الموقد جزءاً مهماً من مسكنه، كما دلت على ذلك اكتشافات معبرة، أتت من مناطق عديدة من العالم، ولوحظ وجود نوعين من المواقد النياندرتالية، النوع الأول مواقد جماعية كبيرة في مراكز الإقامة الأساسية، أى في المعسكرات القاعدة، التف حولها الناس كلما دعت الحاجة، ودرات بقربها الجلسات والسهرات والمناسبات، التي تبادل فيها السكان خبراتهم ومعارفهم، مما كان له أكبر الأثر على التطور الاجتماعى والروحى،

وهذه هي المرة الأولى التي حصل فيها على أدلة، على أن قدرة الإنسان على خلق الثقافة، قد تطورت بحيث غدت الثقافة ممكنة، يتصل هذا اتصالاً طبيعياً فيما يخص امتلاك النياندرتاليين للغة، وأنهم كانوا يتفاهمون بأكثر من الكلام البدائي والإيماءات. ونعود ثانية للمواقد، لنذكر أن النوع الثاني مواقد صغيرة، في المعسكرات المؤقتة، وفي محطات توقف جماعات الصيادين وملتقطي الثمار، الذين أشعلوا النار لحاجة دفء أو قبل عودتهم محملين بغنائم الصيد والالتقاط إلى قواعدهم الأصلية.

والآن، وقد عرضنا معظم الأمور الهامة عن حياة هذا الإنسان الاجتماعية والاقتصادية، فإنه يتضح لنا أن العلاقات الاجتماعية في هذا العصر، قد أصبحت أكثر تنظيماً، وتبلورت مفاهيم الأسرة، وربما العشيرة التي تكونت من تجمع عدة أسر، وعموماً فإن عدد الجماعات البشرية أصبح أكبر، مما يستوجب وجود شخص قائد أو عدة أشخاص، ويشرف على إدارة أمور هذه الجماعات، التي نظمت حياتها الاجتماعية والاقتصادية، بشكل أفضل من ذي قبل.

حياته الروحية:

فإذا ما انتقلنا إلى حياة النياندرتال الروحية، وجدنا أنه أول من مارس المعتقدات والشعائر الدينية، التي كرست وبشكل واضح إنسانيته، بل أن الحياة الروحية لهذا الإنسان، تبدوا وكأنه أعلى مستوى من حياته الاقتصادية، فلم يترك موتاه تأكلهم الوحوش والطيور الجارحة، بل اهتم بهم ودفنهم بعناية، مما يدل على أن الحياة الاجتماعية عنده صارت أحفل

بالمعانى من ذى قبل. وكانت القبور غالباً فردية، وأحياناً جماعية ضمت عدة أشخاص، لكنها حفرت بشكل منتظم، ووضعت فيها الجثث مثنية أو جانبية أو مقلوبة، وطليت بالألوان، وزودت بالأسلحة والأدوات والأطعمة وغير ذلك، فقد وجدت في مغارة (قفزة) جنوب شرق الناصرة مقبرة في ست عشرة جثة نياندرتالية، أتت من خمس عشرة طبقة أثرية، أرخت لأكثر من خمسين ألف سنة، وقد ميز بين الجثث، ستة أشخاص كبار وسبعة أطفال، بعض الجثث دفن بعناية واضحة، بينها رجل وضع في حفرة صخرية مستلقياً على جانبه الأيمن، ومثنى الأرجل، وهناك قبر لامرأة شابة مستلقية على جانبها الأسير مثنية الرجلين أيضاً، وإلى جانبها طفلها نائماً برأسه على صدرها، في وضعية تهز المشاعر، وبين ذراعى هذا الطفل جثة غزال، رمزاً للحياه والخصب، مما يدل على القيمة الروحية لهذا الحيوان لدى سكان بلاد الشام، والأهم من ذلك أنه يدل على تبلور مفاهيم الأسرة المؤلفة من أب وأم وأطفال. في إطار مجتمع نظم علاقاته الجنسية والاجتماعية.

ومن موقع فلسطينى آخر، هو مغارة (السخول) كشف عن قبر جماعى فيه عشرة هياكل، بينهم ثلاثة أطفال. ويجدر بنا هنا ذكر مثال آخر عن الدفن، وإن كان من بلاد الرافدين، لأنه يدل على عناية هامة بالموتى، لم نكن نتصورها من قبل، ولا يطمع أن يصل إليها إنسان العصر الحاضر.

فقد عثر في مغارة (شانيدار) في شمال العراق على سبعة هياكل نياندرتالية، بينها هيكل لرجل بلغ الأربعين تقريباً من عمره، مع أنه كان

منذ طفولته مصاباً بشلل نصفي وأعور، ويعاني من إلتهاب المفاصل، لكنه توفي مقتولاً بصخرة وقعت عليه من سقف الكهف، فدفنه أهله بعد أن فرشوا قبره بالورود، وما كان ليصل حتى ذلك العمر في بيئة صعبة، لولا وجود من يساعده، ويحيطه بكل الحب والرعاية، ليتمتع حتى القاصرين بحقهم المقدس في الحياة، فما أحوج البشرية اليوم إلى مواقف إنسانية تشبه تلك التي اتخذها النياندرتاليون حيال بعضهم البعض، وخصوصاً أولئك المتشدقين بشعارات حقوق الإنسان، ولم يبقوا للشعبين الفلسطيني والعراقي أي حق في الحياة. كما لاحظ العالم الأنثربولوجيا " هول تاكس ": يظهر أول دليل على دفن الموتى بين البشر في هذه الفترة. وهنا أيضاً لا أجد تقليداً واحداً ثابتاً، فقد وجدت جثث مطوية وأخرى ممدة، وتتفاوت محتويات القبور من الحلى لصدفية والأدوات الصوانية إلى عظام الحيوانات والمغرة الحمراء، وقد وجدتبعض القبور محددة بالحجارة، وعلى أضعف الفروض تدل عادات الدفن هذه على بداية الاهتمام بالموتى، أما على أقوى الفروض، فتدل على وعي بمجريات الحياة، وعلى محاولة واعية للتعبير الديني، ونهاية، لا يسعنا إلا القول: كان النياندرتال إنسان عميق المشاعر، تأثر بالموت واتخذ منه موقفًا محدداً، معتقداً أن هذا الموت لا ينهي حياة اخوته وأفراد أسرته، فزودهم بكل ما يحتاجونه للحياة الأخرى.

فنون النياندرتال:

والآن، وقد عرضنا الأمور الهامة في حياة النياندرتال، جدير بنا أن نقول شيئاً عن حياته الفنية، أو الطرق التي سلكها للوقوف على أبواب

الفن، ونقول لذلك، لأنه ليس لدينا في أى منطقة من العالم، أدلة كافية على أن النياندرتال قد عرف الفنون، إلا بعض الحزوز الزخرفية على الأدوات العظمية، التي يعتبرها البعض، البواكير الأولى للفن، الذي سيظهر في العصر اللاحق، على يد الإنسان العاقل، ولكن يتحتم علينا في هذا السياق، ذكر اكتشافين هامين من بلاد الشام، لا يزالان يثيران النقاش، الاكتشاف الأول من مغارة (العصفورية) شمال بيروت، وهو قبر غزال وفيه ألوان من مغرة حمراء، والاكتشاف الثانى من جبل (قفرة) من فلسطين، وهو أيضاً قبر غزال وفيه مغرة حمراء. إن هذين الاكتشافين دفعا إلى الاعتقاد بأن الغزال قد احتل مكانه اجتماعية وروحية مميزة لدى النياندرتال، الذي دفنه بعناية وأحاطه بالألوان الزاهية، علماً بأن تحضير تلك الألوان لم يكن مهمة سهلة، فهو بحاجة إلى معرفة جيدة بخصائص المواد العديدة المستعملة، كالأحجار الحديدية (الهيماتيت والليمونيت) والشحم والدم والنباتات وعصير الفواكه والماء وغيرها، وقد وجدت في مواقع هذا العصر الأحجار النادرة والصدف البحرى والنهرى، التي ربما حملها الناس في آذانهم وأعناقهم (حلق أو أطواق) والأصبغة الحمراء والسوداء، التي ربما دهن بها النياندرتاليون أدواتهم وأجسامهم وملابسهم وبيوتهم، لما كان لهذه الأصبغة من أثر نفسى عليهم. وفي ذلك يقول " ميرسيا إلياد " إن الاعتقاد بحياة ثانية، يبدو أنه قد برهن على وجوده منذ العصور الموغلة في القدم، باستعمال الصباغ الأحمر البديل الشعائرى للدم، والذي هو رمز الحياة. وأخيراً لابد من الإشارة إلى بعض الحزوز التي كشفت على جدران مغارة السخول في

فلسطين.

نياندرتال فلسطين:

لقد توصل النياندرتاليون المشرقيون إلى درجة عالية من التجانس، وقامت بينهم علاقات مباشرة وتبادلوا حاجاتهم وخبراتهم، مما حقق لهم فائدة أكبر من بيئتهم الغنية التي سخروها بشكل جيد خدمة لمصالحهم المادية والروحية المتزايدة، فالمواقع التي تمثلت فيها بقايا هذه المرحلة كثيرة لغاية، وموزعة في جميع مناطق فلسطين، ويمكننا القول بأن فلسطين تمتعت في هذه المرحلة بأفضل الأجواء المناخية، وبطبيعة خضراء ومجموعات حيوانية مختلفة، إن المواقع التي وجدت فيها آثر المجتمعات النياندرتالية في بلاد الشام أكثر من أن تحصى، إلا أن أهمها مغاور فلسطين ومواقعها المكشوفة التي أصبح لها شهرة عالمية، بسبب احتوائها على الهياكل العظمية النياندرتالية المتطورة، مثل مغاور الطابون والعمود والسخول وأبو يوسف وكبارا وقفزة وأم قطفة في منطقة القدس، وموقع عبده في النقب.

وكنا قد أشرنا إلى الصفات الفيزيولوجية المتطولة لتلك الهياكل، وما رافقها من أدوات حجرية متطورة أيضاً. ناهيك عن التطور الاجتماعي والروحي والفني، مما دفع إلى الاعتقاد بأن النياندرتال من فلسطين، هو الذي تطور نحو الإنسان العاقل، في حين أن النياندرتال الأوروبي قد انقرض دون خلف، علماً بأن هذا الموضوع معقد، ويحتاج إلى مزيد من البحث.

الإنسان العاقل أصله فلسطيني:

مجتمعات الإنسان العاقل في العصر الحجرى القديم الأعلى:

وعندما قال " فرانزفيد نرايخ " في مؤتمر علماء الانثروبولوجيا في كوبنهاجن، قبل الحرب العالمية الثانية مباشرة، أنه يبدو أن الإنسان العاقل قد جاء من فلسطين إلى شمال أوروبا. ثار مندوب النازى، وخرج من قاعة الاجتماع. وقد بلغ الإنكار والتلفيق لدى أصحاب النظريات العنصرية درجة الجنون والهوس، عندما دفنوا جمجمة إنسان حديث، في طبقات جيولوجية قديمة في إنجلترا، زاعمين أنها جمجمة حقيقية، ليتوصلوا إلى أن الإنسان العاقل، قد ظهر لأول مرة في إنجلترا وليس في فلسطين، ولكن هذه الخدعة ما لبثت أن اكتشفت، وبات غرضها العنصرى والسياسى مكشوفاً.

إن الوصول إلى كبد الحقيقة، ووضع الأمور في نصابها، يتطلب منا دراسة مطولة، لا يتسع لها صدر هذه الدراسة، لأن هذه القضية بالذات، قد درست وبحث فيها بشكل متواصل لعقود كثيرة، يهمنا أن نكتفى بأهم نتائج الأبحاث في هذا المضمار، التي جاءت في كتب العديد من الباحثين، منهم الدكتور سلطان محيسن الذي قدم سلسلة من الأدلة، يدحض بها الزعم العنصرى إن من أظهر معالم العصر الحجرى القديم الأعلى، أنه قد ظهر في خلاله على أرض فلسطين تغير كان من نوع خاص، بحيث أن نتائجه الأولى تتحدى الإدراك، ففي مطلعه اختفى " النياندرتال " وظهر نوع جديد من البشر، تطور على ما يبدو من " النياندرتال الفلسطيني "، وهذا النوع أطلق عليه " الإنسان العاقل " أو " الإنسان الفلسطيني " إذا عقدنا العزم على إرجاع الحق لأهله ووضع الأمور في

نصابها الصحيح، وهو جدنا المباشر، والأقرب لنا من كل الأنواع البشرية في عصور ما قبل التاريخ.

أن قلة من العلماء المغرضين، الذين تشبعت أذهانهم بنظرية السوبرمان، إلى الحد الذي أن يختلقوا موقفًا غريباً وشاذاً إزاء تاريخ الإنسان القديم، إذ لم تعجبهم نظرية إرجاع شعوبهم إلى إنسان فلسطين العاقل، فراحوا يروجون إلى نظرية (انقراض النياندرتال) بدافع التعالى على الغير، باعتباره الشكل المشوه المنحرف عن المألوف.. يستندون على معطيات مواقع فرنسا وألمانيا وإنجلترا، التي وجدت فيها هياكل عظمية، لا تحمل صفات مشتركة بين النياندرتال والإنسان العاقل، إنما أتت تلك الصفات من الإنسان سلف النياندرت المسمى " الهوموراركتوس " دون أن يمر بمرحلة النياندرتال، وبذلك يكون كل من النياندرتال والإنسان العاقل فرعين مستقلين، تطورًا عن الهوموراركتوس، انقرض الأول وتابع الثاني تطوره، وللتمثيل على هذه النظرية نورد رأياً للانثروبولوجى " آشلى مونتاغيو " يقول فيه: إننا لا نستطيع تناول مسألة تباين البشر إلا من خلال مفهوم التنوع، وأغلب الظن أن إنسان النياندرتال والإنسان العاقل، كانا متعارضين في إحدى مراحل تطورهما، لكن ليس من المحتمل أن يكونا كلاهما قد انحدرا في نفس الوقت من نفس الأسلاف، ولاشك أن النياندرتال كان أقدم من الإنسان العاقل، ولكننا لا نعرف كيف حدث ذلك في الواقع، وإن كان يبدو من المعقول أن نقول، إن نوعاً من أنواع الإنسان المنتصب هو الذي قاد إلى ظهور الإنسان العاقل فيما بعد، وذلك عن طريق التهجين والطفرة، وللتمثيل النظرية

الأخرى، يذكر " كارلتون كون وادوارد هنت " أن الأدلة تزداد توردا على الاستمرار بين الصناعات النياندرتالية وصناعات الإنسان العاقل في أماكن عديدة، وأخيراً فإن أسنان نوع نياندرتال وجماجمه وعظامه متفاوتة تفاوتاً كبيراً، بعضها أقل اختلافاً عن جماجم الإنسان العاقل أكثر مما نظن، بل أن بعض جماجم الإنسان العاقل ذات ملامح نياندرتالية، ويتماشى مع هذا الرأى " جون كوماس " الذي يقول: ولاشك أن فكرة انقسام الإنسانية إلى أقسام وسلالات منفصلة تمام الانفصال غير صحيحة، فهي مبنية على أسس خاطئة، ومبنية على وجه الخصوص على نظرية الدم، وآثاره الوراثية، وهذه النظرية خاطئة خطأ النظريات العنصرية القديمة.

ويأتى دور " الدكتور سلطان المحيسن " الذي يقول: الرد على أصحاب نظرية انقراض النياندرتال سهل ميسور، وهو أننا لو قبلنا هذه النظرية، فليس لدينا دليل قاطع عن السبب، هل هو تغير مناخى مدمر وكوارث طبيعية، أم وباء شامل أطاح بهذا الإنسان، أم مذابح جماعية نفذها الإنسان العاقل، أدت إلى مسح إنسان النياندرتال المسالم في طبيعته من الوجود، وذلك كما يقول البعض. ولكن يصعب علينا قبول هذا الافتراض الأخير لسبب بسيط، هو أننا لم نعثر حتى الآن على آثار مثل تلك المذابح، بل أننا لم نجد أية هياكل عظمية نياندرتالية، قتال أصحابها بأدوات الإنسان العاقل.

وفي ضوء ذلك كله، يمكن لنا أن نفترض، بأن كلاً من إنسان نياندرتال والإنسان العاقل، كانا وثيقى الصلة ببعض، وربما تعايشا معاً

لزمن قصير أو طويل، قبل أن يسود النوع الأكثر تكيفاً والأفضل، وهو الإنسان العاقل، مهما يكن فلابد لنا أيضاً من قبول الحقيقة الراهنة على الأقل وهي أن النيادندرتال الفلسطيني، هو الذي تطور وحده فيزيولوجيًا وحضارياً نحو الإنسان العاقل، جدنا المباشر، وصانع الحضارة الإنسانية بمفهومها الشامل، أما مصير النياندرتال الأوروبي والأفريقي، فكان الانقراض، ولكن هناك للأسف من يرفض قبول هذه الحقيقة، مثل بعض الباحثين الغربيين والألمان خاصة، ويصعب عليه أن يكون أصله من المشرق العربي، مدفوعاً باعتبارات عنصرية، لا تمت إلى جوهر البحث العلمي بصلة، نخلص من هذا إلى القول، إن مسلمات فجه لها هذا القدر من الصفات المطاطية الهلامية المربكة، وهذا القدر من عدم الوضوح، يجب أن يعاد فهمها أو إذا أمكن - تشطب تماماً من قاموس العالم.

حضارة الإنسان العاقل:

أما العصر الحجرى القديم الأعلى، الذي ساد فيه الإنسان العاقل، فيمتد في الزمان بين ٤٠ - ١٩ ألف سنة من الآن تقريباً، وكل المعطيات المتوفرة لدينا الآن، تدل على أن الإنسان العاقل، كان الإنسان الرابع والأخير في عصور ما قبل التاريخ، وقد أظهر وجوده انعطافاً جوهرياً في مسيرة البيولوجى والحضارى للبشرية، لأنه امتلك تقريباً كل الصفات الفيزيولوجية والاجتماعية التي نملكها نحن، ولم يكن يختلف عنا إلا بمقدار ما تختلف العروق الحالية بعضها عن بعض.

وأهم ما يميز الإنسان العاقل عن أسلافه، ما طرأ على مقدم المخ من التحسن، فقد بلغ حجم دماغه من (١٤٠٠ - ١٥٠٠ سم٣) مع ما اقترن

بذلك من تحسن في العين واليد، ولقد كان طويل القامة من (١٦٠ - ١٧٥سم) وجمجمته مكتملة الدوران، وجبهته عريضة ومستقيمة، ووجهه مسطح وعظامه بارزة وأسنانه وفكاه تحمل صفات مثيلاتها لدى الإنسان الحالي.

حياته الاقتصادية والاجتماعية:

دفع ظهور هذا الإنسان الحضارة بشكل هائل، إذ بلغ المستوى الاجتماعي والاقتصادي درجة كبيرة من التقدم والتنوع، جسدته ابتكارات جديدة في مجالات عديدة، اعتبرت طفرة تكنولوجية لم يسبق لها مثيل، فبدلاً من الآلات التي كانت تتخذ من الشظايا والنوى، استخدم الإنسان العاقل عموماً طريقة أكثر اقتصاداً ولكنها أكثر تعقيداً في تحضير الأحجار المشطوفة (المسنونة)، فكانت سابقة لأغراضه من كشط وطعن وثقب وقطع ونقش وحفر ونشر، فصنع من تلك الشفرات تشكيلة كبيرة من الأدوات المتخصصة والمحددة، كالمكاشط والسكاكين والمثاقب والأزاميل والحفارات والمناشير إلخ، وبمساعدتها أمكن استخدام مواد جديدة في صناعة الأدوات، كالعظام والعاج والقرون، ومنها صنعت رؤوس السهام وحراب صيد السمك، والمثاقيب والخطاطيف والأوتاد والإبر، حتى أدوات النحت، في حين اتخذ من العظام الجوفاء في بعض الأحيان حقاقاً للأصباغ يحفظ فيها المغرة الحمراء التي أدمن استعمالها، وقد عرف قدر العاج في صناعة الأدوات والحلى، بذلك أصبحت الآثار العظمية من الدلائل الزمنية والحضارية الهامة على مجتمعات ذلك العصر، وقد استخدم نوعاً من الأسلحة المقذوفة، ذات السنن المدببة

المصنوعة من الصوان أو العظم أو العاج، واستخدم القوس لقذفها في مرحلة مبكرة، وقد حصل في هذا العصر تخصص في صيد حيوانات معينة، فاصطياد الرنة في أوروبا، والبقر الوحشي في أفريقيا، والماعز الجبلي في بلاد الشام، بينما تراجع الإقبال على حيوانات أخرى، كانت مرغوبة في السابق، كالدب والماموث والحصان وأصبحت الثروة السمكية والطيور، تلعب دوراً هاماً في غذاء الناس.

حدث تطور نوعي وكلي في مجال البناء، فأقيمت المساكن الكبيرة، ذات الأشكال البيضاوية والدائرية، المتخذة أركانها من الخشب، والمرصوفة أرضيتها بالحجارة، وقسمت من داخلها إلى مناطق للسكن والنوم وإلقاء الفضلات وتصنيع الأدوات، وزودت البيوت بالمواقد الضرورية المبنية بشكل منظم، وبلغت تلك البيوت مساحات كبيرة أحياناً، واتسعت لعدة أسر، مما يجعلنا نتحدث عن مجتمعات تخطت مرحلة الجماعة الصغيرة الأولى، وأصبحت على مستوى القبيلة المؤلفة من عدة جماعات أو أسر.. ولكن رغم القدرة الواضحة للإنسان العاقل على البناء، فقد استمر في سكنى المغاور والملاجئ الطبيعية، التي نظمها كيفما أراد، فأقام المصاطب والمواقع، وتحكم في مداخلها أو مخارجها، بما ضمن له نور الشمس والنور والحماية والدفء، بل انه دخل مغاور عميقة ومعتمة، بعد أن أتقن الاستفادة من النور والضوء، فصنع السرج التي أنارها من شحوم الحيوانات ودهنها، ومن صمغ الأشجار، وعنى بزخرفة الحجرات التي اتخذها في جوف الكهوف بالصور، وفي بعض الأحيان بالنماذج البارزة من الطين لأنواع من الحيوانات.

إذا ما انتقلنا إلى زيه، لوجدنا أنه اتخذ ثياباً من الجلود والفراء... وإجمالاً، تمثل هذه المرحلة بداية للتجمعات البشرية التي أصبحت تشكل أنماطاً معيشية متطورة، مع أنها بقيت تعيش على الصيد وجمع القوت، وتستعمل بالإضافة إلى ما تم ابتكاره من أدوات، الأدوات الصوانية التي ورثها من المجموعات التي سبقتها.

حياته الروحية:

لقد أتاحت تلك الابتكارات المتنوعة، حياة كريمة مرفهة للإنسان العاقل، مما أتاح له بعض وقت الفراغ للتأمل في الحياة الدنيا والآخرة، فدفن موتاه بعناية أكبر مما فعل أسلافه. وثمة أمثلة على دفن رجل وامرأة معاً، وأمثلة لمدافن الأسرة والجماعة، وجميعها شاهد على العناية، ويصح أن نقول على المحبة المشوبة بالاحترام، وقد دهن جثثهم بالمغرة الحمراء، رمز الدم وتجدد الحياة، وزودهم بالأسلحة والطعام واللبس، سواء في ذلك الرجل والنساء والأولاد، علاوة على أنه مارس السحر، الذي تدل عليه إشارات غامضة تركها على جدران مغاوره، وعرف تقديم الأضاحي، كما يستنتج من الحيوانات المرجومة بالأحجار أن تؤكل. وفي كتابة تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية - يرى " ميرسيا إلياد " يبدو أن ممارسة الدفن قد تعممت، الأجسام المرشوشة بالمغر الأحمر، مدفونة في حفر، حيث وجد عدد من أدوات الزينة (أصداف أقراط عقود) ومن الراجح أن وجود أشياء كهذه، لا يعني فقط الإيمان باستمرار الحياة فحسب، وإنما أيضاً بأن الميت سيتابع نشاطه المميز في العالم الآخر.

الفنان الماهر:

تعتبر الفنون بكل أنواعها: الرسم والنحت والحفر والموسيقى والرقص والقصص، من أكبر مميزات الإنسان العاقل، وهي تشكل دليلاً ساطعاً على المستوى الرفيع، الذي وصلته مجتمعات هذا الإنسان.

كانت فنونه إما على شكل قطع منقولة، كالتماثيل والدمى والأسلحة وأدوات الزينة (الفن التطبيقي)، أو آثار ثابتة، كالنحت والرسم على جدران المغاور والملاجئ (الفن الجداري)، وقد صنع التماثيل للمرأة العارية (الربة الأم) فاعتبرت الدليل الأول على عقيدة الخصب، التي استمرت عصوراً طويلة فيما بعد، وأخرى لحيوانات شدت انتباهه، كالثور والغزال والماعز الجبلي، كما حفر على القبضات العظمية لأسلحته صوراً حيوانية وإنسانية مختلفة، كما حفر على الصوان، وأجاد الحفر إجادة تامة، فبدت الصور التي حفرها رائعة الجمال. ولم يقتصر فنه على الحفر والنحت، بل تعدى ذلك إلى الرسم والتصوير، فهناك في جوف الكهوف العميقة حيث تخيم الظلمة، ولا تتحقق رؤية الأشياء، خلف على الحوائط والسقوف صوراً عديدة للحيوانات، التي أدمن على اصطيادها، كما أشكال بشرية غريبة، وإشارات غامضة ترمز إلى الجنس أو النار. وتبدو الصور بسيطة في أول العهد، بحيث لا تزيد عن الخطوط الرئيسية التي تحدد الأشكال العامة للحيوان، ولكنها تتطور فيما وتتحول إلى صور ناطقة للحيوان، تبعث في النفس الدهشة وتثير الإعجاب.

أما ألوانه، فكانت تؤلف من المغرة الحمراء والصفراء وأكسيد

المنغنيز الأسود وغيرها، وكانت يسحق في مساحيق من الصخر البلورى، صنعت منه لوحات لمزج الألوان التي، كانت تودع في عظام أو يصنع منها أحياناً نوع من الأقلام، تبدو كأنما أخذت تواً من عند بائعها، وكذلك كانت تستخدم لبسط الألوان أقلام من العظم.

وقد خلف الإنسان العاقل الكثير من القواقع البحرية وعظام الأسماك وأسنان الرنة والذئاب وأكوام من قطع مصقولة من العاج، ذوات ثقوب تساعد على استخدامها للزينة تعلق على الجسم، ومن بين ما خلفه أيضاً أنواع من الخرز، اتخذها من العاج وصنعها بمهارة فائقة، ويبدو أنه كان لديه من الوقت ما اتسع لإشباع ميوله الفنية والثقافية، لأنه كما ذكرنا - كان يعيش في يسر ورخاء. وتدل المزامير العظمية على أن الإنسان العاقل عرف الرقص، والموسيقى، وقد عرفه " ميرسيا إلياد " بالرقص الدائرى، وأنه كان لضمان طمأنه روح الحيوان المقدس، ولضمان تكاثر الطرائد.

خضعت فنون هذا العصر لدراسات وتفسيرات مختلفة، فيرى البعض أنها مورست لمجرد الفن، ويرى آخرون أنها تحوى مضموناً سحرياً، من أجل تسهيل عمليات الصيد، بينما حملها البعض الأخر معانى جنسية تدور حول الخصب، وفي دراسة علمية متكاملة، يرى العالم " لوروغوران " أن فنون الإنسان العاقل تبرهن على وجود نظام ميثولوجى - اجتماعى متطور، تحكمه عقائد معينة آمنت بها تلك المجتمعات، وهى تعكس فكراً شاملاً ومترسخاً في ذهن حامليه، يحدد موقفهم من قضايا الموت والحياة والجنس، ويعتقد هذا العالم أن الأنوثة والذكورة كانتا من

جوهر معتقدات ذلك الإنسان وفنونه، لأنه رأى فيهما نفسه واستمرار جنسه، أى رأى فيهما عالمه الذي ربطه بعالمه الخارجى، أى بيئته، فصور هذه البيئة وحيواناتها، معتبراً الثور رمز الذكورة، بينما الفرس رمز الأنوثة، لأنه كثيراً ما ترافق هذان الحيوانان في العديد من الأعمال.. ومهما يكن، فإن الفن في هذا العصر يعكس عقيدة قد لا نفهمها، بسبب غيب الكتابة، وإن كنا نرى الأشكال المرسومة والمنحوتة نوعاً من الكتابة التصويرية، التي أراد الإنسان من خلالها أن يدون أفكاره ومعتقداته، ويعطيها المعنى الرمزى الذي لا يدركه أحد غيره.

يتصل بموضوع اللغة اتصالاً طبيعياً، فن القصص، فلقد تردد على ألسنة بعض العلماء، أن القصص كان فناً آخر من فنون الإنسان العاقل، مما يجعلنا نخمن أن أجدادنا في ذلك العصر، قد بدءوا سرد القصص حول النار، التي كانوا يجتمعون حولها، ولكنهم لم يبلغوا وقتئذ إلى رواية الأساطير عن أبطال الماضى ومآثرهم، وفي ذلك يقول " ميرسيا إلياد ": أما بالنسبة إلى أساطير أصل الحيوانات والعلاقات الدينية بين الصياد والطريدة ورب الوحوش الكاسرة، فمن المرجح أنها دونت بغزارة في قوانين مرموز لها، في مرجع دراسة الفن للعصور الحجرية، كذلك من الصعب أن نتخيل مجتمعاً من الصيادين مجرداً من أساطير حول أصل النار، في حين أن الكثير من هذه الأساطير تبرز النشاط الجنسى.. وأخيراً يجب أن يؤخذ في الحسبان التجربة البدئية لقداسة السماء والظواهر السماوية وهكذا، جسد الإنسان مشاعره ومعتقداته، عبر كل أنواع الفنون المعروفة لدينا.

مجتمعات الإنسان العاقل في فلسطين:

للأسف، ليس في الوسع، إلى الآن التحدث إلا قليلاً جداً، عن مجتمعات الإنسان العاقل في فلسطين التي انتشر منها بسرعة على الأرض بكاملها، وخصوصاً أوروبا الغربية، مدفوعاً بأسباب لا نعلم حقيقتها، وأقام هناك حضارة غنية رفيعة المستوى، وهكذا، فقد تبوأت في هذا العصر الأدوار، وبعد أن كانت غرب آسيا وأجزاء متفرقة من أفريقيا، تشكل النشاط الإنساني الرئيسي، انتقل هذا الدور إلى غرب أوروبا، التي حصلت فيها الإنجازات الكبيرة للإنسان العاقل في معظم الميادين، وقد عاصرت تلك الإنجازات حضارات مختلفة، تعاقبت في غرب أوروبا على امتداد ذلك لكنها وصلت في أواخره إلى أدنى مراحل الخمود والانحطاط، لأسباب مناخية وغير مناخية، يلوح أن من أصعب الأشياء على الجماعات المتقهقرة، من محدثي الحضارة، أن ينشطوا إلى خوض طرق جديدة للرقي، ليس لهم سابقة عهد بهم، ومن أجل ذلك تخلف غرب أوروبا في مراحل وبات حيناً إقليمياً على هامش المعمورة همجياً، لا يكاد يمت بسبب ثقافي إلى الشعوب في الأقاليم الأخرى، لتعود الشعلة من جديد إلى المشرق وبلاد الشام وعلى رأسها فلسطين، وتوضع الأمور في نصابها الصحيح، وإن دل هذا على شئ، إنما يدل على أن دور فلسطين في ذلك، لم يكن دوراً هامشياً، فلم تهجر هذه البلاد، ولم يغب عنها الإنسان كلياً، وهذه حقيقة يمكن استنتاجها من مخلفات مجتمعات فلسطين عن غيرها في غرب أوروبا، واستعمالها لأدوات الطحن، حيث تم العثور في كهف القفزة على بلاطة حجرية مع المدق

التابع لها، ومن أهم المواقع الأخرى للإنسان العاقل التي عثر عليها في فلسطين: كهف الأميرة، أم قطفة، موقع عرق الحمر، مغارة الواد وكبارا ومواقع أخرى في صحراء النقب.

طبيعي ألا تكون هذه الصورة الموجزة صورة تامة، لأن الآثار التي وصلتنا لتلك المجتمعات قليلة التنوع، اقتصرت على الأدوات الحجرية ذات الأشكال المتنوعة، بينما لم يعثر على الكثير من الأدوات والآثار العظمية والخشبية، والأهم من ذلك، لا وجود للفنون التي عرفت في أوروبا، يجب ألا يدهشنا أن نجد السجل الأثري ناقصاً بشكل مؤسف، وذلك فيما يتعلق بالأدلة على فن الإنسان العاقل في فلسطين، إذا أخذنا بعين الأعتبار أن هذا الواقع قد يكون حقيقياً، ولا يعكس طبيعة حضارات سكان فلسطين آنئذ فمن المحتمل أن تكون آثار هؤلاء الناس قد تعرضت لتخريب الزمن كما أن الأعمال الجارية والاكتشافات المحتملة في فلسطين وشقيقاتها من بلاد الشام، ربما تغير الصورة أو تقلبها.

إذا انطلقنا حتى من تلك المعطيات القليلة الموجودة تحت تصرفنا، نستطيع أن نؤكد أن تلك المجتمعات كانت مزدهرة متجانسة، وإذا استطردنا في هذا الموضوع، فإنه يصح لنا أن نتساءل، هل من قبيل الصدفة أن تكون فلسطين مهد الحضارة النطوفية، التي أطلق عليها العلماء ثورة العصر الحجري الوسيط.

في الطريق إلى أعظم حضارات العالم القديم:

يستحيل علينا أن نلم بحضارات الإنسان العاقل في فلسطين، مما أوجزنا في هذا الإلمام وربما من الأفيد أن نتجه الآن إلى بيان، يبسط

للقارئ بمنتهى الإيجاز، مراحل تطور هذه الحضارات، المرحلة الأولى والأقدم، لها طابع انتقالي من العصر الحجري القديم الأوسط، إلى العصر الحجري القديم الأعلى، وظهرت فيها التأثيرات الفلوازية الموستيرية واضحة، وتسمى مرحلة " الأميرة "، نسبة إلى مغارة الأميرة في فلسطين، وعنها يحدثنا " كون وهنت " بأن الحضارة الفلوازية الموستيرية المحلية في فلسطين، وتعرف باسم الأميرة، تمتاز بصقل قاعدتي الأداة الحجرية، تطورت إلى حضارة حجرية قديمة عليا، وهذه هي الحضارة المعروفة جيداً باسم الحضارة الأوريناسية، والتي انتشرت إلى أوروبا. وفي المرحلة الثانية، حصل الدخول الكامل في العصر الجديد، وصنعت الأدوات النموذجية لذلك العصر، وبخاصة المكاشط والمخارز ذات الجبهة الغليظة، والنصال التي تشبه الأورنياسية في أوروبا، لذلك هناك من يطلق على هذه المرحلة تسمية (الأورنياس المشرقي) بينما يسميها آخرون (الأحمري)، نسبة إلى مغارة عرق الأحمر بفلسطين.

أما المرحلة الثالثة والأحدث، فهي الحضارة (الكبارية)، نسبة إلى مغارة الكبارا بفلسطين، ويبدوا أنها استمرت ما بين ١٩ - ١٢ ألف سنة ق. م، تقريباً، وقد رافق التغير المناخي الذي ساد هذه الفترة، نقصان في الموارد الحيوانية التي كان يصطادها الإنسان، الأمر الذي حدا به إلى البحث عن مصادر عيش أخرى، فلجأ إلى جمع بذور الأعشاب البرية الصغيرة، كالقمح والشعير وغيرها، التي أصبحت تكون عنصراً هاماً في غذاء الإنسان.

فضلاً عن العينات النباتية التي تم جمعها، فقد عثر المنقبون على أدوات الطحن والمدقات والمناجل والأدوات الصوانية الصغيرة جداً، وقد استعملت مثل هذه الأدوات الصوانية والرماح ومناجل لقطع الأعشاب البرية، ومن بين هذه الأدوات المكتشفة في كهف في جبل الكرمل، وأقدم تاريخ تم الحصول عليه لفترة كبارا حوالى ١٩ ألف ق. م، لقد المسوحات والحفريات الأثرية، عن عدد من المواقع الكبارية في بلاد الشام، ونذكر منها بالإضافة إلى كبارا: الواد، ووادى الفلاح في فلسطين، وفي منطقة الأزرق، ورأس النقب، ووادى الخزانة في الأردن.

أما الأدوات الصوانية الكبارية، فقد امتازت بارتفاع نسبة صناعة الشفرات الصغيرة الحجم، صناعة السكاكين، التي كانت سائدة في الفترة السابقة، وبوجود الآلات صغيرة الحجم، الأدوات المدببة والشفرات المطروقة على أحد الجوانب والطرف العلوى، فضلاً عن بعض الكبيرة الحجم نسبياً، مثل المكاشط الرأسية والمخارز. وقد استعمل الإنسان في مرحلة كبارا الأجدان والمدقات البازلتية لطحن الحبوب البرية، ويدل ذلك على تطور في في كيفية تناول الطعام.

كان العلماء قد صنفوا المرحلة الكبارية، تبعاً لأنواع الأدوات الصوانية التي وجدت فيها، فأطلق اسم كبارية على الشفرات الصغيرة جداً، واسم كبارية هندسية على المواقع التي احتوت شفرات هندسية متنوعة، وتميزت الأخيرة بالأدوات الصوانية ذات الأشكال الهندسية مثل شبه المنحرف والمستطيل والمثلث، مع وجود أدوات أخرى أكبر حجماً، مثل المكاشط والمثاقب والمناكيش، ومن مواقعها: عين غيف على

الساحل الشرقي لبحيرة طبرية، ووادى زين في منطقة النقب في فلسطين، وفي منطقة رأس النقب، والخزانة في الأردن.

بوجه عام، كان للحضارة الكبارية انتشاراً واسع، امتدت من سيناء غرباً وحتى الفرات شرقاً، ومن فلسطين جنوباً وحتى الأناضول شمالاً، وكانت دليل ساطع على وحدة حضارية شاملة الشام، دفعت لأن تصبح فلسطين في العصور التي تلت، مركز النشاط الأهم، والابتكارات في حياة الإنسان والحضارة، إنها ثورة العصر الحجرى الوسيط.

* * *

obeikandl.com

مراجع الفصل الأول

١- الدكتور سلطان محيسن، **بلاد الشام (عصور ما قبل التاريخ)**، الأبجدية للنشر، دمشق، ١٩٨٩.

٢- الدكتور عبد القادر عابد، **الموسوعة الفلسطينية**، الدراسات الخاصة، المجلد الأول، بيروت، ١٩٩٠.

٣- الدكتور معاوية إبراهيم، **الموسوعة الفلسطينية**، الدراسات الخاصة، المجلد الثاني، بيروت، ١٩٩٠.

٤- الدكتور أحمد فخري، **دراسات في تاريخ الشرق القديم**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٨.

٥- كارلتون كون، وادواردهنت، **السلالات البشرية الحالية**، ترجمة د. محمد السيد غلاب، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ١٩٧٥.

٦- هـ. ج. فير، **تاريخ العالم**، ترجمة لفيف من العلماء، الجزء الرابع، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة (د. ت.).

٧- جوردون تشايلد، **التطور الاجتماعي**، ترجمة، لطفي فطيم، مطابع سجل العرب، القاهرة، ١٩٦٦.

٨- جون كوماس، **خرافات عن الأجناس**، ترجمة د. محمد رياض، مكتبة نهضة مصر، القاهرة (د. ت.).

٩- هـ. ك. بيبي، **قصة البشرية**، ترجمة د. محمد متولي، ود. محمود موسى، مطبعة الفكرة، القاهرة، (د. ت).

١٠- ميرسيا إلياد، **تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية**، ترجمة. عبد الهادي عباس، الجزء الأول، دار دمشق، دمشق، ١٩٨٧.

١١- آشلي مونتاغيو، **البدائية**، ترجمة د. محمد عصفور، مطابع الأنباء، الكويت، ١٩٨٢.

١٢- شيان لان بو، **كهف بكين**، ترجمة وتعليق د. ناريمان درويش، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣.

* * *